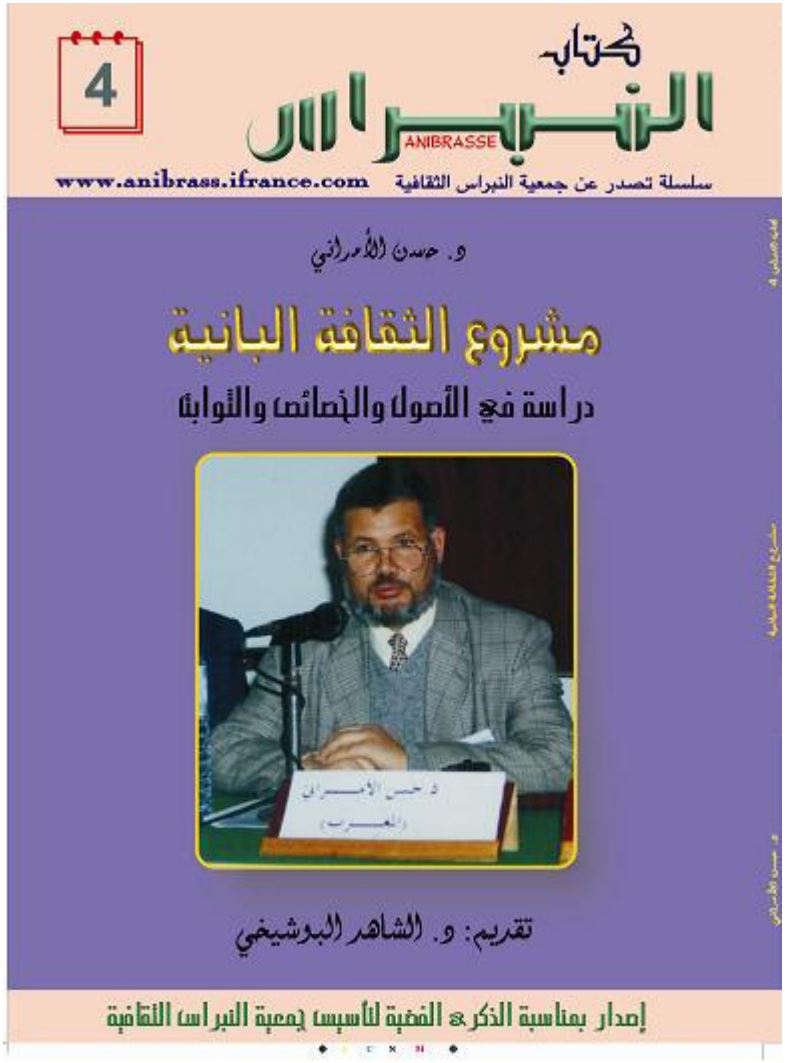

الثقافة : المعرفة والسلوك والبناء

الثقافة هي المحيط الفكري والسيكولوجي والاجتماعي الذي يكتنف الوجود الإنساني في المجتمع، ويزوده بالخبرة المعرفية والسلوكية؛ التي تشكل طباعه وشخصيته،

وتحكم علاقته بسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد[1] أي إن الثقافة نظرية في المعرفة ومنهاج في السلوك ومنهجية في العمل والبناء...

وللعالم الثقافي منظومة تتمحور حول:

- بناء العالم المعرفي
- بناء العالم الروحي
- بناء العالم السلوكي
- بناء الخبرات الإنجازية
- بناء القدرات الوقائية[2]

لهذا إن المقولات المهمِّشة لدور الثقافة في البناء الحضاري الإسلامي تدل على جهل القائلين وتهافت منطقهم، وتساهم في إفقار حركة النهوض الحضاري وحرمانها من عامل لا يقدر بثمن فحسب، بل يشكل خطرا استراتيجيا حقيقيا على حاضر النهضة الإسلامية ومستقبلها.

إن هذه المعاني هي التي ظلت تؤطر عملنا الثقافي داخل جمعية النبراس الثقافية في مجالاته المختلفة.

وإن هذه المعاني هي التي ظلت تحويها أوراق الجمعية ومذكراتها الثقافية والتربوية والإدارية.

وقبل ذلك، كانت هذه المعاني خلاصة ما اطلع عليه أساتذة وشباب الجمعية العاملون من أدبيات كان عمودها الفقري تراث الأستاذ مالك بن نبي، وما كان ينشره الأستاذ الدكتور حسن الأمراني من مقالات حول الثقافة البانية في الأعداد الأولى من مجلة المشكاة خلال عقد الثمانينات من القرن الميلادي الماضي.

1- مالك بن نبي : شروط النهضة ص 125 / مشكلة الثقافة ص 37/42

2- الطيب برغوث : محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري ص 35

وقد كانت الرغبة دائمة في جمع وإخراج هذه المقالات على شكل كتاب حتى يستفيد منها القراء، ولكن هذه الرغبة ظلت عصية على التحقق لسنوات، إلى أن سنحت الفرصة أخيرا بجمع هذه المقالات في الكتاب الرابع من سلسلة كتاب النبراس التي تصدرها الجمعية.

ويأتي هذا الإصدار متزامنا مع احتفالات الجمعية بالذكرى الفضية لتأسيسها، بعدما عرضنا نصه على الدكتور حسن الأمراني لمراجعته، وعلى الأستاذ الدكتور الشاهد البوشيخي الذي وضع تقديما له.

فجزى الله الأستاذين على جهديهما المشكورين، ونفع به شباب الصحوة، إنه سميع مجيب.

والسلام

محمد البنعيادي

فاس في 13 يناير 2007

بسم الله الرحمان الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله

ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم

نحن والإقلاع الحضاري

1ـ لمـ يبق إلا الإقلاع

أجل، لم يبق إلا الإقلاع، هذا قدر هذه الأمة في هذا القرن، قرن الخلاص اليسير بعد المخاض العسير، القرن الذي يغاث فيه المسلون وفيه يعصرون. إنه القرن الخامس عشر، انفجر فجره في شرق الأرض فاندك إيوان كسرى، وجلت عن أرض الأفغان جيوش القيصر، ثم استطار النور في الأفق خلال الربع الأول منه مبشرا بقرب الشروق، فيه ستعصف الرياح بقوة لتسقط كل الأوراق الميتة، وفيه ستهطل الأمطار بقوة لتجرف كل الغثاء، ستجتث كل الأشجار الخبيثة، ولن يبقى في الربع الأخير منه إلا الأشجار الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء.

ألا بشرى، لمن أدرك ساعة الخلاص، وساعة شروق الأمة من جديد رحمة للعالمين.

ألا بشرى لمن شهد ساعة الإقلاع.

2ـ ولا إقلاع بلا حياة:

أجل لا إقلاع بلا حياة.

الأحياء وحدهم يفكرون، والأحياء وحدهم يدبرون، والأحياء وحدهم يسمعون ويبصرون، ويستعدون ويعدون.

الأحياء وحدهم يستوعبون الماضي والحاضر فيحللون ويعللون ليستشرفوا فيركبوا المستقبل، والأحياء وحدهم يصنعون من واقع الإنسان وواقع المكان وواقع الزمان بالتدبير الحكيم الغد المشرق للإنسان.

الأحياء وحدهم يسمعون نداء الماضي وأنين الحاضر، ونشيد المستقبل، والأحياء وحدهم يبصرون فجر الإسلام وشروق الإسلام غدا على العالم.

الأحياء وحدهم يستعدون لغد الأمة بالتخلي عن كل هادم للذات، والأحياء وحدهم يعدون لغد الأمة بالتحلي بكل بان للذات.

وأغلب أبناء الأمة اليوم أموات غير أحياء.

وأغلب كيان الأمة شظايا متناثرة وأشلاء

من يعيد بناء الإنسان؟ من يجمع شتات الكيان؟

من يضع الإصر والأغلال، ويزيل القيود والحدود، والجوازات والتأشيرات بين الأرحام، ويختصر الرايات في راية ،والولايات المتفرقة في ولاية أو ولايات متحدة ؟

من يعيد الحياة إلى الأمة والأمة إلى الحياة؟

إنهم الأحياء والأحياء فقط .

3ـ ولا حياة بلا روح

أجل، لا حياة بلا روح، لا تفكير بلا روح، ولا تدبير بلا روح، ولا سمع ولا إبصار بلا روح، ولا استعداد ولا إعداد بلا روح. إذا نفخت الروح في الجسد وهبته كل خصائص الحياة، وإذا خرجت الروح من الجسد سلبته كل خصائص الحياة. بالروح نحس كل ما يحس، وندرك كل ما يدرك، وبالروح نتحرك جميع أنواع الحركة. بالروح نكون، وبالروح ننمو، وبالروح نرسل ما نرسل ونستقبل ما نستقبل، وبالروح نحافظ على الذات وعلى صحة الحياة، فإذا غادرت الروح تعطلت جميع الوظائف، وبقي الأموات ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها....ثم يسرع الفساد إلى كل الكيان.

لقد ذهبت للأسف الأرواح وبقيت الأشباح، وذهبت المعاني وبقيت المباني، وتحلل كيان الأمة وتفسخ إلى جزيئات أسرعت إليها المكروبات وفرستها الفيروسات.

ولقد حاول المحاولون استيراد أرواح من الشرق أو الغرب، كما حاولوا البحث عن أرواح في التاريخ أو الجغرافيا، ولكنها لنتونتها لم تزد جسد الأمة إلا تعفنا وتفتتا، فاشتدت الحاجة إلى الروح التي بها يهب الله تعالى الأمة الحياة. وما تلك الروح إلا القرآن.

4- ولا روح بلا قرآن

أجل لا روح بلا قرآن، القرآن روح الأمة المسلمة؛ هو الذي به منحها الله تعالى الحياة أول مرة وهو الذي به يمنحها الحياة في أي مرة.

هو الذي يوم أنزل عليها ماؤه المبارك الطهور اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

هو الذي به كانت ويمكن أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

وهو الذي به كانت و يمكن أن تكون أمة وسطا شاهدة على الناس.

القرآن روح هذه الأمة؛ يفعل بجسدها ما تفعله الروح بجسد الفرد، ويصيب جسدها إذا خرجت منه روح القرآن ما يصيب جسد الفرد. قال تعالى: "وكذلك أوحينا إليك روحا من امرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا"(الشورى: 49)

القرآن روح من أمر الله،كالروح العادية التي هي من أمر الله ،"و يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي"(الإسراء 85)

وليس بين الأمة وبين الحياة إلا أن تنفخ فيها روح القرآن: تنفخ في أفراده ذكورا وإناثا، وفي أسرها صغيرة وكبيرة، وفي مجتمعاتها نخبة وعامة، وفي دولها رؤساء ومرؤوسين، فإذا هي في تراحمها مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد.

ألا إن الإنسان ابن آدم نبي الله

وبنو آدم مكرمون مفضلون عند الله

وليس بغير هدى الله يسعد عباد الله

وليس بغير هدى الله يحيا عباد الله

وليس بغير هدى الله يكون عباد الله

5- فهل إلى إقلاع سريع من سبيل؟

ذلكم ما تبشر به ورقات "**مشروع الثقافة البانية**" للأستاذ المثقف الباني الدكتور حسن الأمراني "من زلزال ثقافي عنيف" ينقي "وجدان الإنسان العربي المسلم... مما أصابه من مسخ وتشويه" وذلك "هو المنطلق لإقلاع حضاري جديد".

إن "الثقافة السائدة" بنوعيها: "الجامدة" و "المنبتة" عاجزة كل العجز عن إنتاج إنسان النهضة، ومجتمع الإقلاع، عاجزة عن تحرير الذات وتحقيق الذات وتفعيل الذات، عاجزة عن التركيب الحضاري المطلوب لوصفة الإقلاع في الرؤية والمنهاج والممارسة جميعا.

إنها ثقافة هادمة ماسخة تحتاج- باستعجال رحمة بالناس - إلى أن تعوض بثقافة بانية ناسخة.

ولقد كان الأستاذ المثقف الباني الدكتور **حسن الأمراني** من أوائل من بشر بـــ"**مشروع الثقافة البانية**" في مجلته الرائدة **المشكاة** وجمعيته القائدة

"**النبراس**" منذ ربع قرن أو يزيد، ولكن "العرب لا يقرأون".

فهل الآن وقد جمعت لهم تلك **المقالات المشكاة** في هذا **الكتاب النبراس** سيقرأون؟؟

ذلك ما نرجوه، وبالله التوفيق

فاس في 21 دي الحجة 1427 /11يناير 2007

مقدمة

في أي عصر نعيش؟

هل أصبحت لغة الرصاص اللغة الوحيدة في هذا الزمن الأعرج؟

وهل أصبحت رائحة الدم والبارود حجابا كثيفا يحول بيننا وبين رؤية الأشياء ويبرر اغتيال الكلمة بالمصادرة والحصار والصمت؟

أم لعلنا نقول: إننا أترفنا كلاما، ونحن بحاجة إلى الفعل؟

ما من جريمة الآن أكبر من أن نسكت.. إننا نحس بأننا لم نتكلم بعد.

أول الفعل الكلمة.

نحن بحاجة إلى أن نخطو الخطوة الأولى على طريق التحول الحضاري بإطلاق الكلمة، هذا يقيننا ومن هنا يأتي إصدار الكتاب الرابع من سلسلة كتاب النبراس التي تصدرها جمعية النبراس الثقافية بوجدة تعزيزا لمشروعها الثقافي الباني الذي بدأته منذ ربع قرن.

لم تأت هذه الخطوة إحياء للذكرى الفضية لتأسيس هذا المشروع وإيمانا بضرورة تحريك مياه الثقافة الراكدة فحسب وإنما هي محاولة لتجديد دم ثقافة تصلبت شراييينها، رغم الأصباغ المتجددة باستمرار.

هل نقول: إنها محاولة في سبيل بناء ثقافة تخلف الثقافة السائدة؟ لعله طموح كبير ولكنه طموح لولاه لكانت هذه الخطوة عطشا للتراكم.

ونحن نرتكز في هذا الطموح على أمور نجمل بعضها فيما يلـــي:

1 – تشهد الساحة الثقافية نشاطا كميا يوحى بالتحول الثقافي، ولكننا نطرح جملة من التساؤلات التي لا نراها مشروعة فحسب، بل نراها لازمة منها: ما أوجه هذا التحول؟ ما عمقه؟ وما حقيقته؟

ليست الإجابة عن هذه الأسئلة هينة، ولا ممكنة في هذا الحيز المحدود، ورغم ذلك نسارع إلى القول: إن هذا التحول سيبقى مسطحا غير عميق، ما لم يجعل الإنسان منطلقه ومنتهاه.

2 – إن الفعل الثقافي – التربوي شرط أساسي لكل تحول حضاري، ونحن نعيش في عالم بلا حضارة، حيث فقدت الحضارة الغربية مقوماتها وشروطها الإنسانية رغم تقدمها المادي المطرد الهائل، وأصبحت غير قادرة على العطاء الحضاري الكامل في وقت أسلمت أمتنا العربية الإسلامية زمامها الحضاري منذ قرون، وهي في حاجة إلى " زلزال ثقافي عنيف" يحررها من الخوف والتواكل والإحجام. وحسب هذا المشروع أن يبشر بهذا الزلزال.

3 – إن وضوح المقاصد والغايات يستلزم وضوح السبل والمسالك، ورغم اقتناعنا بأن العالم من حولنا معقد ومتشابك، وأن العالم النفسي، وهو مجال كل نشاط إنساني، أشد تعقيدا وغموضا إلا أننا بحاجة إلى ثقافة تسهم في تقريب هذه العوالم من الإنسان. إنه لا بد إذن من تصور واضح عن الكون والحياة والإنسان، ولا بد من اصطناع منهج وأدوات قادرة على بسط هذا التصور.

4 – إن انتماءنا الحضاري أولا وحده كفيل بأن يجعلنا نتجاوز كل نظرة إقليمية، ورؤية شعوبية، وتفسير عرقي، و إن انتماءنا الحضاري هو الذي يمنحنا توجهنا الإنساني. إن كل نشاط إنساني ينبغي أن يجعل أول أهدافه تكريم الإنسان لقوله تعالى "ولقد كرمنا بني آدم ".

5 – هذا المشروع نريده كقلب المؤمن، فيه مثل السراج يزهر، سراج يعرفنا على أنفسنا، ويعرفنا على واقعنا النفسي والاجتماعي، وباب مشرع على مستقبلنا الحضاري.

الدكتور حسن الأمراني

الفصل الأول:

نـــحـــو ثـــقـــافة بانيـــة

﴿ الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون. ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾

إبراهيم: 24– 26

المبحث الأول: بل هي فتنة

ليس الغرض من هذا البحث تتبع كلمة (ثقافة) في مصادرها اللغوية، وأصولها التاريخية، كما ليس من أهدافه أن يذهب بعيدا في الموازنة بين المذاهب التي ترى أن " كل ثقافة معينة هي انعكاس من حيث شكل مفهومها لمجتمع معين، وتلك التي ترى – بصورة مجملة – أن الثقافة هي ثمرة الفكر، أي ثمرة الإنسان فتلك أمور فرغت منها، أو كادت

جملة من الدراسات والأبحاث، وإنما هو محاولة لتأسيس معالم (ثقافة بانية) تخلف الثقافة السائدة التي يمكن تقسيمها إلى نوعين:

1 – ثقافة **جامدة**، وهي ثقافة لا تكاد تعي حاضرها فضلا عن أن تستشرف مستقبلها، وهي تحاول أن تستمد وجودها ومشروعيتها من (التراث والأصالة)، ولكن الأصالة في مفهومها تنحصر في أنه (ليس في الإمكان أبدع مما كان) ولذلك ينبغي العمل على تثبيت ما هو قائم، ومن هنا فهي تنظر إلى (التراث) نظرة قاتلة مميتة، حين تنظر إليه من زاوية سكونية ثابتة، وكأنها بذلك تحاول أن تجعل الماضي مهيمنا على الحاضر والمستقبل، دونما فقه للعناصر الثابتة، والعناصر المتغيرة.

2 – ثقافة **منبتة**، وهي ثقافة تقوم على (الانفعال)أكثر مما تقوم على (الفعل). وأول مظاهر الانفعال في هذه الثقافة أنها تبدو كرد فعل للثقافة الجامدة في موقفها من التراث، وفي فهمها للأصالة، وهي تتبنى في أحسن الفروض الموقف الانتقائي الترقيعي، وأخطر مظاهر انفعالها أنها تقف منبهرة أمام حضارة الغرب، فهي تسعى جاهدة إلى (تغريب) أمتنا بدعوى أن النقلة الحضارية لا تتم إلا عن طريق (التغريب). وإذا كان الفعل الثقافي ضروريا وملحا في سبيل أية نهضة حضارية، فإنه يصبح أكثر ضرورة، وأشد إلحاحا في عالم متغير مضطرب كعالمنا، وفي مجتمع متخلف يعيش شتى التناقضات كمجتمعنا، هذا المجتمع الجديد – القديم، فأنت تلمس هذا التخلف، وتراه رأي العين في الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والخلقية، غير أننا في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ أمتنا، لسنا بحاجة إلى تغيير الهياكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بقدر ما نحن بحاجة إلى تغيير ثقافي شامل، يمس وجدان الإنسان. إن تغيير خارطة وجدان الإنسان العربي المسلم، وتنقية هذا الوجدان مما أصابه من مسخ وتشويه هو المنطلق لإقلاع حضاري جديد.

والثقافة عموما، ليست مرتبطة بجانب محدود من جوانب الحياة، بل هي متصلة بكل مجالات النشاط الإنساني، من أفكار وعادات وأخلاق وفنون. إنها كما يعرفها (تيلر)" ذلك الكل لمعقد الذي ينطوي على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وغير ذلك من القدرات".

وإذا أردنا أن نعرفها تعريفا يصلنا بمنشئها وأصولها، قلنا " إنها المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر.

وهكذا نرى أن هذا التعريف يضم بين دفتيه فلسفة الإنسان وفلسفة الجماعة، أي مقومات الإنسان ومقومات المجتمع مع أخذنا بعين الاعتبار ضرورة انسجام هذه المقومات جميعا في كيان واحد، تحدثه عملية التركيب التي تجريها الشرارة الروحية عندما يؤذن فجر الحضارات"

وفي ضوء الربط الوثيق بين الثقافة والحضارة يرى مالك بن نبي أن الثقافة تصبح نظرية في السلوك، أكثر مما هي نظرية في المعرفة، إن الثقافة ما لم تتحول إلى فعل، أو تعمل على دفع الإنسان إلى الفعل، تفقد شرائط وجودها وتصبح نوعا من الترف الفكري الذي يكبل الطاقات ويعوقها عن الانطلاق. إن الفعل الثقافي ينبغي أن ينمي في الإنسان، أساسا نوازع البناء وإذا شئت فقل: إن الفعل الثقافي ككل فعل تغييري، ينبغي أن يشتمل على عنصري الهدم والبناء: هدم العناصر المظلمة التي تشد الإنسان إلى الحضيض وتعوقه عن الانطلاق، وبكلمة واحدة: هدم أسباب الهوى وبناء العناصر المشرقة التي تدفع بالإنسان إلى الحركة من أجل أن يسمو إلى مكانة التكريم الإلهي ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ الأعراف 175-176.

ولا شك أن كل ثقافة تظل خاضعة، من حيث المفاهيم المنبثقة عنها، للمحيط الذي توجد فيه، ولابد لهذا المحيط من مقومات أساسية يتشكل داخلها الفعل الثقافي ويوزن بميزانها ونستطيع توضيح هذا الذي نقول بأن نضرب مثلا بالمقارنة بين مظهرين من مظاهر واقعنا الحضاري والواقع الحضاري الغربي، فالمتفرج الأوروبي بعامة يفكر في جو من الحساسية الجمالية، بينما يفكر المتفرج المسلم في جو من الحساسية الأخلاقية، ومن أجل هذا لا يمكن أن يتشابه سلوكهما أمام المشهد الواحد.

فعندما يقتل عطيل ديد مونا– في مسرحية شكسبير – وينتحر، يبلغ انفعال المتفرج الأوربي أوجه، لأن الدائرة التي يعيشها في تلك اللحظة دائرة جمالية. أليس يرى نهاية مخلوقين عجيبين؟ بينما يظل انفعال المتفرج المسلم هادئا في هذا المشهد، لأن دائرته أخلاقية، فهو يرى قاتلا ومنتحرا.[3]

المبحث الثاني: مظاهر ثقافة مأزومة

إن الثقافة السائدة بشقيها – الجامد والمنبت – كفت عن أن تكون فاعلة، ونعني الفعل الإيجابي البناء المنسجم مع الطموح الحضاري لأمتنا، أي أن السطح الثقافي متحرك،

[3]- الحق أن انفعال المتفرج المسلم في هذا المشهد لا يظل جامدا إلا انه انفعال يخالف المتفرج الأروبي على كل حال .. فهو ليس انفعال تعاطف وجداني ولكنه انفعال إنسان يرى أمامه شخصا ينفذ جريمتين . وسنقف فيما بعد عند مفهوم الأسس الجمالية في الثقافة البانية.

ولكن الأغوار ساكنة. ويمكن أن يزداد هذا الأمر وضوحا حين نستعرض بعض مظاهر هذه الأزمة:

أ- أول تلك المظاهر، ذلك **الانفصال المريع بين المثقفين والجماهير**، فالمثقف الذي ما فتئ يتحدث عن الجماهير، وينادي بالالتزام، يحس في واقعه بغربة حادة داخل مجتمعه، ذلك بأنه يشعر أن هناك قطيعة بينه وبين هذه الجماهير التي يكتب عنها ولها، وهذه القطيعة ليست قطيعة لغوية فحسب، كما يتوهم بعض الناس، ولكنها قطيعة فكرية وسلوكية إن صح التعبير. فكأن للمثقف عالمين: عالما يعيش فيه منعزلا في أبراجه الثقافية مع زمرة من المثقفين، وعالما آخر قد يختلف اختلافا كبيرا عن عالمه الأول وهو عالم (الناس)، ومن هنا يمكن أن نلحظ للشخص نفسه سلوكين متباينين في حياته (فنجده بالنهار ظرفيا ماديا، منضبطا إذا مارس مهنة الطب أو إذا مارس مهنة التدريس الجامعي فهو مادي يكاد يهمل الغيب إهمالا تاما ويتخذ الحياة بحسبانها نظاما تحركه القوانين المادية المنضبطة، وما يقبل عليه المساء حتى يقبل على شيخ من شيوخ الطرق فيجلس إليه ويستمع إلى الأوهام والخرافات فيصدقها أيما تصديق ويحاول أن يستحضر روح والده – عليه رحمة الله – ويعيش في أوهامه وهو مرتاح الضمير حتى يمسي عليه الليل، فإذا حل الصباح لبس بدلته الجديدة واتخذ شخصية (دكتور) ... ليمارس بها مهنة الصباح..)

ب- ومن مظاهر هذه الأزمة أيضا **غياب النظرة الشمولية وسيادة النظرة الجزئية**، أي أن المثقف عندنا عاجز عن التسامي إلى إدراك التصور الشمولي المنسجم المتناغم الواصل بين عالم الغيب وعالم الشهادة، بل هو يعجز – حتى في حياته الدنيا – عن أن يكتسب نظرة شمولية لحياته، فتراه يحاول تفسير الأحداث والواقع اعتمادا على الجانب الاجتماعي أو الاقتصادي أو النفسي أو اللغوي أحيانا دون أن يرقى إلى إدراك الآثار السلبية أو الإيجابية التي يمكن أن تحدثها هذه العوامل جميعا أو أشتاتا، وهذا القصور في التوفيق بين العناصر المختلفة هو الذي أفضى إلى تمزق المثقف بين الثقافات الواردة وهي بطبيعتها ثقافات متعددة ومتنوعة ، ولكنها أيضا متباينة بل متناقضة في كثير من الأحيان، وهذا التمزق ناجم أصلا عن عدم وجود قاعدة ثقافية ذاتية حصينة تمكن من الفهم العميق

لمفهوم (تعايش الثقافات) كما يسميها مالك بن نبي أو (حوار الحضارات) بتعبير روجيه غارودي.

جـــ- ويرتبط أشد الارتباط بما نحن فيه من **الركون إلى الواقع والاستسلام للأهواء** وقبول ما هو كائن بدعوى (الواقعية) أو (ليس في الإمكان أبدع مما كان) ومن هنا سادت النزعة التربوية الانهزامية فكرا وسلوكا، وأما والوجه الآخر لهذه النزعة فهو الرفض المجاني الذي لا يعرف ما يريد، أي محاولة (قهر الواقع) عن طريق الانتكاس في جملة من الشعارات الفارغة فكرا والانغماس في ملذات الحياة الدنيا سلوكا.

المبحث الثالث: من نتائج الثقافة المأزومة

وإذا كانت تلك بعض مظاهر الأزمة، فإن من أخطر نتائجها ما أصاب الأمة من عقم وشعور بالخيبة والمرارة واختلاط القيم والموازين، ولا شك أن انعدام القاعدة الثقافية الصلبة هو الذي جعل ساحتنا الثقافية تهب عليها رياح الشرق والغرب فتظل عاجزة عن التمييز بين اللواقح منها وبين الريح المدمرة، وهكذا جربنا في أقل من نصف قرن من الزمان كل المذاهب الفكرية الوافدة، بل لقد ساد عالمنا العربي أكثر من اتجاه فكري وأكثر من مذهب فلسفي في فترة زمنية واحدة، وهكذا عرفنا الوجودية باتجاهاتها وبخاصة الاتجاه السارتري الذي تبنته بعض المنابر الثقافية وتعهدته بعض دور النشر العربية بالترجمة والنشر والتوزيع، وعرفنا العبثية ووجدنا في أسطورة سيزيف ما يروي ظمأنا في هذا المجال، وحلت الماركسية تتبعها الواقعية الاشتراكية، وأصبحنا نجمع لا في مكتباتنا فحسب بل في وجداننا أيضا بين ماركس وسارتر وكامو ومركوز وكافكا وشتراوس، دون أن نشعر بفقدان التوازن.

لقد أضحى العالم العربي الإسلامي– فترة من الزمن– حقل تجارب سياسيا وثقافيا، وارتبطت الثقافة السائدة بشقيها بالأنظمة السياسية القائمة. فكانت نكبة **1948** م، إيذانا بإخفاق الثقافة الليبرالية اليمينية كما كشفت كارثة **1967** م عن خواء الاتجاه الماركسي اليساري.

إن اليسار – من حيث يدري أو لا يدري – قد صرخ معلنا انسلاخه الحضاري عن هذه الأمة عندما نادى بالمادية والعلمانية ورفض الغيب منهجا للحياة مع التصور المشوش الذي يخلط بين مفهوم الغيب – كمعرفة يقينية – كما هو في التصور الإسلامي وبين الطوباوية والمثالية والضبابية المفضية سبلها إلى التيه، وحكم هذا الاتجاه على نفسه لذلك بالإفلاس وبناء سد منيع بينه وبين جماهير أمتنا التي ماتزال – رغم الغبش الذي ران زمنا على ضمائرنا – تحمل في وجدانها التاريخي صفاء جبارا يحتاج إلى من يكشف عنه الحجب لينطلق في طريق البناء الحضاري العظيم.

لقد أكد القرآن الكريم أن الساحة التاريخية لها سنن ولها ضوابط كما يكون هناك سنن وضوابط لكل الساحات الكونية الأخرى. ومن هنا قاوم النظرة العفوية أو النظرة الغيبية الاستسلامية في تفسير الأحداث حين نبه إلى أنه (لابد لك أن تتعرف على هذه القوانين لكي تستطيع أن تتحكم فيها وإلا تحكمت هي فيك وأنت مغمض العينين) غير أنه أكد الإيمان بالغيب سبيلا وحيدا لإدراك ما فوق الواقع المحدود.

وإذا كان ذلك هو موقف اليسار، فإن اليمين – سياسيا وثقافيا – قد اتخذ وسيلة خطيرة من أجل ضرب هذه الأمة وتعطيل طاقاتها وشل إقلاعها الحضاري المرتقب، ذلك أن اليمين السياسي –كما يقول د. عبد الله النفيسي– يريد أن يجعل من العمل الإسلامي ومؤسساته وصحفه ومجلاته ومنظماته الطلابية وسيلة لتكريس أوضاعه السياسية المنحرفة تحت شعار التصدي لليسار الدولي، وقد نجح اليمين السياسي – سليل المنافقين – لفترة غير قصيرة في توظيف الدعوة إلى الإسلام لتكريس أوضاعه السياسية المنحرفة في غفلة من الدعاة.

ويشعر كل من اليمين واليسار في كثير من الأحيان أن الأرض التي يقفان عليها مهزوزة رخوة، ومن هنا لم يكن غريبا – كما سيتبين – أن يبحث اليمين عن وسائل تعطيه حق المعاصرة وحق البقاء والاستمرار، فيقع في تناقض رهيب وفهم سقيم وتحريف للكلم عن مواضعه، كما لم يكن غريبا أن يبحث اليسار لنفسه عن سند من التراث يتكئ عليه فلا نجد غير بؤس وعقم شديدين.

ولنا وقفة – إن شاء الله – عند بعض النماذج التي تمثل بؤس الثقافة السائدة قبل الحديث عن الأسس التي ينبغي تركيزها في سبيل إقامة ثقافة بانية.

المبحث الرابع: من أغراس الثقافة البائسة:

ظاهرة خليل حاوي

عندما كان مالك بن نبي يقرر الحقيقة الفاصلة بين واقعين متباينين حضاريا كان ينطلق من الأصول قبل أن تصاب بالمسخ والتشويه، أما في واقعنا الحضاري اليوم فقد أصبح الإنسان العربي المسلم فريسة لكل الرياح التي جعلت قيمه مختلة حتى لم يعد يتعاطف مع عطيل في انتحاره فحسب بل صار يمجد مواقف الاضطراب والقلق والشك والحيرة ويرى في الانتحار صورة من صور البطولة والاستشهاد.

ونريد أن نعالج جانبا من هذه الموضوع – كغرس من أغراس الثقافة السائدة – بالوقوف على ظاهرة نحب أن نطلق عليها: ظاهرة خليل حاوي.

وكان من الممكن معالجة هذا الموضوع تحت اسم آخر لولا نوعية ردود الفعل التي صاحبت (رحيل) خليل حاوي وكشفت عن اندحار القيم واختلاط المفاهيم.

لقد آثر خليل حاوي أن يرحل عن همومه منتحرا (محتجا) على الواقع العربي الأليم الذي تكشفت سوأته بعد الغزو الصهيوني للبنان سنة **1982**، ومن قبله اختار مجموعة من أدبائنا نفس الحل إعلانا عن الرفض والاحتجاج: أحمد العاصي من مصر، وعبد الباسط الصوفي من سورية، و تيسير سبول من الأردن.

ولقد كان من المنتظر في مثل هذه المواقف أن نقف وقفة تأمل أمام (الانتحار) بصفته حلا يختاره جملة من مثقفينا عندما يحزنهم أمر أو تشتد بهم أزمة ما فنحلل الظاهرة محاولين الكشف عن خباياها وهتك أسرارها عن طريق معرفة الواقع النفسي والاجتماعي وتحليل واقعنا الذي هو – بلا ريب – يشي بالتمزق والاضطراب والتناقض، غير أننا تعودنا أن نجبن عن مواجهة الحقيقة وأن نصبغ هذه الحقيقة بما يرضي أهواءنا، فلا نرى منها غير ما تشتهي النفس أن تراه فإذا الانتحار بطولة واستشهاد.

ومما لاشك فيه أن الواقع العربي بما يحمله من تناقض وإحباط وتآمر وذبح للحريات ومصادرة لأبسط الحقوق كفيل بأن يسلط بعض الأضواء على المصير المؤلم الذي لقيه الشاعر

خليل حاوي، غير أن الواقع (الموضوعي) لا يتم التسليم به ما لم ندرك معادله النفسي، أعني دراسة وتحليل نفسية الشاعر من خلال مواقفه الفكرية والسلوكية. ولا شك أن شعر الشاعر مما يقربنا من هذه الغاية قليلا أو كثيرا. فماذا نجد إذا نحن ذهبنا نستنطق هذا الشعر؟

ليس من غايتنا هنا أن نقدم تحليلا شاملا لشعر خليل حاوي، وإنما غرضنا أن نقترب من عمله الشعري ونمسه بالقدر الذي يسعفنا في فتح بعض أبواب نفس قلقة مضطربة.

إذا رجعنا إلى قصيدة (البحار والدرويش) من ديوانه: نهر الرماد، وجدنا الشاعر يقدم لقصيدته بقوله:

(طوف مع – يوليس – في المجهول – ومع – فاوست – ضحى ليفتدي المعرفة – ثم انتهى إلى اليأس من العلم في هذا العصر – تنكر له مع – هكسلى – فأبحر إلى ضفاف – الكنج – منبت التصوف – لم ير غير طين ميت هنا – وطين حار هناك – طين بطين)

ويستوقفنا هذا التقديم الذي هو عند الشاعر – كما هو عند القارئ على حد سواء – مفتاح من مفاتيح قلعة القصيدة أن البحث المضني للوصول إلى عالم الحق والخير وافتداء المعرفة لم يفض إلا إلى اليأس، اليأس من العلم (العقل بجموده) واليأس من التصوف (القلب بأشواقه) ألا يمكن أن يكون اختيار سبيل (فوست) لافتداء المعرفة إيذانا باختيار المصير الذي اختاره (فاوست) أو اختاره (غوته) لبطله " فاوست "؟

ليس هناك إذن موازنة بين عالمين يعيش فيهما الشاعر بل هناك موازنة بين حضارتين: حضارة غربية مفرطة في تأليه المادة وعبادة المتاع وأخرى شرقية موغلة في نفي الجسد وفي تمجيد الروح عن طريق الحج إلى النهر المقدس(الكنج)، والحضارتان معا على طرفي نقيض. إن نفس الشاعر مرآة لا تعكس واقع الحضارتين فحسب بل تعكس تناقضهما وتعكس خواءهما أيضا، وتنطوي النفس على ذلك التناقض الذي يعجز الشاعر أمره فتكون المأساة:

خلني، ماتت بعيني منارات لطريق

خلني أمضي إلى ما لست أدري

لن تغاويني الموانى النائيات

خلني للبحر، للريح، لموت

ينشر الأكفان زرقا للغريق

مبحر ماتت بعينيه منارات الطريق

مات ذاك الضوء في عينيه مات

لا البطولات تنجيه، ولا ذل الصلاة؟

عندما تصبح الصلاة عزلة وانقطاعا عن العالم وجنوحا إلى الصوامع، فلابد أن تفضي إلى الغربة والتمزق والقلق، في وقت ينتظر فيه أن تكون ملاذا وحصنا يركن إليه، وشحنة تزرع القوة والقدرة على مواجهة البشاعة والانحراف والشر، وإذا كانت عقيدة الشاعر لكونه مسيحيا تسهم في حفر هذه الهوة بين النفس والواقع أو بين الدين والحياة (اعط ما لقصير لقيصر وما لله لله) فإن المسلم قد يعاني من نفس المصير وتتملكه نفس الهواجس إذا تسرب إليه انحراف في تصور الغيب والشهادة وغاب عنه أن (كل شيء لله ولا شيء لقيصر) وهذا ما عانى منه شاعر مسلم هو تيسير سبول يوم غابت عنه الحقيقة الربانية الموحدة بين الدين و الدنيا وركب التصوف في صورته المنحرفة سبيلا إلى الخلاص من هيمنة الواقع البئيس (ولم يكن جنوحه إلى التصوف ليحدث لو لم يكتشف بأن العقل أخفق – تماما كما اكتشف رامبو – ففاء إلى التصوف وحين أخفق تيسير في تحقيق مثله الأعلى في الوصول إلى الحقيقة عن طريق التصوف.. انتحر) [4]

لقد وقع الشاعر تحت وطأة الواقع الذي ران عليه بكلكله ولم يستطع التصوف الذي احتمى به أن يحجب بشاعة الواقع وقتامته، فيصرخ:

---

[4] – الأعمال الكاملة لتيسير سبول .

أدري بأني لو بكيت مصير شعبي

لو أعارتني ثكالى النوق حنجرة، سدى

أزجى لسيناء العجوز نحيب شعبي

لا صدى

عشرون ألف مقلة

نقر الغراب

لا تهذ بالنصر الملفق

إنني أنبيك

خذ: النور غاب

والليل أطبق

فليكن ليل – وكان

على أن الأمر كان أفظع مما يتصور، يوم اكتشف الشاعر حقيقة النصر المعكوس لحرب رمضان – أكتوبر فلم يحتمل قلبه مواجهة الواقع وسدد إلى رأسه رصاصة مودعا الحياة مخلفا وراءه هذه الأبيات.

(أنا يا صديقي

أسير مع الوهم – أدرى

أيمم نحو تخوم النهاية

نبيا غريب الملامح أمضى

إلى غير غاية

سأسقط، لابد، يملأ جوفي الظلام

نبيا قتيلا ومافاه بعد بآية

و أنت صديقي،

وأعلم، لكن قد اختلفت بى طريقي

سأسقط، لابد، أسقط يملأ جوفي الظلام

عذيرك، بعد إذا ما التقينا بذات منام

تفيق الغداة و تنسى

لكم أنت تنسى

عليك السلام .)

ولعل هذا ما جعل سليمان الازرعى يقول: (والواقع أن أديبنا لم يكن متصوفا حقيقيا في يوم من الأيام، بعكس ما ذهب إليه بعض الدارسين، فصوفية سبول وقدريته لم تكونا أكثر من حالة هروب لا شعورية مما جلبه له البحث العقلي من آلام وإخفاقات).

إن مأساة الشاعر في نفسه، إذن، انعكاس لمأساته في واقعه، كذلك كان الأمر عند تيسير سبول وكذلك كان عند خليل حاوي.

من يقرأ شعر خليل حاوي يجده مشحونا بالنزعة الإيمانية المسيحية، ولكن المأساة تكمن في انعدام التوازن بين الإيمان والحياة الواقعية. إن الصراع القائم بين عالم الشاعر النفسي الإيماني وبين عالمه المادي الخارجي هو بعض ما يفسر لنا وجه المأساة.

وتقدم الشاعر خطوة أخرى في قصيدته (ليالي بيروت) ليرسم بيروت في واقعها اليومي والكئيب الملفع بترنيمة الموت الممزوج بقهقهة السكارى. بيروت تعيش زمنين في زمن واحد: زمن الكدح والإيمان والألق والسعي الدءوب إلى حمل الصليب[5] وزمن الكفر والمواخير والجريمة والحقد والغدر والخذلان والطواغيت، وما أصعب أن تعيش زمنين في زمن واحد، إنه الجحيم الذي تحمله معك أنى سرت ولا تملك منه فكاكا إلا بسبيل واحد هو: الانتحار.

[5]– الشاعر مسيحي ولذلك يصير الصليب عنده رمزا للخلاص

(إن في بيروت دنيا غير دنيا الكدح والموت الرتيب

إن فيها حانة مسحورة حمرا، سريرا من طيوب

الحيارى

من متاهات الصحارى

في الدهاليز اللعينة

ومواخير المدينة

في هنيهات يهون الكفر فيها

من يقوينا على حمل الصليب

كيف ننجو من غوايات الذنوب

والجريمـــــــــــــــــة؟

مخدعي ظل جدارا يتداعى

ثم ينهار على صدري الجدار)

ما الحل إذن أمام هذا الواقع المرير؟ أما الشاعر فقد ارتضى لنفسه الهروب:

(آه والحقد بقلبي مصهر أمتص أجتر سمومه

ويدي تمسك في خذلانها

خنجر الغدر وسم الانتحار

ردّ لي يا صبح وجهي المستعار

رد لي، لا، أي وجه وجحيمي في دمي كيف الفرار؟

وأنا في الصبح عبد للطواغيت الكبار

وأنا في الصبح شيء تافه

آه من الصبح وجبروت النهار.)

ورحل خليل حاوي، وعندما نقول إنه انتحر احتجاجا على الواقع العربي البغيض فإن الحكمة تقضي بأن نتصدى لهذا الواقع الذي يغتال الشعراء قتلا وانتحارا (تيسير سبول – عبد الباسط الصوفي – أحمد العاصي – خليل حاوي – علي فوده، الخ ..) وان نعمل على هدم قواعده ونسف جذوره ليقوم مقامه عالم جديد، أما أن نفلسف الأمور والواقع والمواقف والأشياء فتلك هي الكارثة وهذا ما كتبه أحدهم يطلق على نفسه– لفتى العربي – بعدما بلغه نعي خليل حاوي تحت عنوان: (موت حاوى مقبرة للشعراء للعرب).

خليل حاوي يطلق النار على نفسه

يستشهد احتجاجا على الخديعة الكبيرة (،،،)

أين هم المشعوذون من موتك

من استشهادك الجميل

يا حبيب القدس، وحبيب الشهادة ؟

وكل حبة تراب في هذا الوطن

إنني أغبطك لأنك الأجمل [6]

فماذا يعني كل هذا إن لم يكن تمجيدا للمواقف القلقة حين يغدو الانتحار أسمى طرائق الاستشهاد ؟

وما أسميناه (ظاهرة خليل حاوي) وما خلفته من ردود فعل لم تعد شاذة من الشذوذ في عالمنا العربي ، بل لقد أصبحت تجد متنفسا لها في واقعنا السياسي والفكري على حد سواء: ألم يدع قائد دولة عربية المقاتلين الفلسطينيين وهم في خنادقهم في بيروت يقاتلون إلى الانتحار؟ وهذا صوت شعري من تونس يبحر مع التيار بعد عودته من الشرق الجريح ويصور المأساة قائلا:

---

[6]– جريدة العلم العدد الصادر بتاريخ 1982/6/22

أعود من الشرق والدم يغمر وجهي

بيروت بين اليمين وبين اليسار قضية

وبين المسيحي والعربي

يكون الحوار الرصاص

يكون الكلام شظية

وبين العدو الحقيقي والثائر الحق والخائن الهمجي

تكون العروبة هي الضحية

بعد عودة الشاعر، والدم يغمر وجهه ونحن ننتظر منه أن يشهر السلاح أو أن يدعو إلى حمل البندقية أو يرسل كلمة طيبة يشد بها أزر المقاتلين إذا به يعلن عن الاختيار ويقول:

أعود من الشرق أحمل عار القبيلة

سأهرب من الزمن المستعار

وخير وسيلة

هي الانتحار.

وبعد، أليس تمجيد الانتحار فتنة يراد بها دفع هذه الأمة المستضعفة التي عانت من مرارة الهزائم المتتالية في هذا القرن إلى جرف هار؟

أليس هذا مظهرا بشعا من مظاهر الثقافة التخريبية المهزومة التي ينبغي العمل على استئصالها ونفخ روح الجهاد في الجماهير حتى تسترجع ثقتها بدورها التاريخي العظيم؟

أو ليس هذا بعد ذلك كله مظهرا من مظاهر الأزمة الثقافية التي تعاني منها أمتنا؟

الفصل الثاني:

معالــم الطريق لثقافة بانية

إنه يبدو من اللازم قبل الخوض في إبراز خصائص الثقافة البانية وشروطها

تحديد بعض الأمور التي تبني عليها تلك الخصائص.

المبحث الأول: أصول ثلاثة للثقافة البانية

إن هناك أصولا لابد من استيعابها حتى يكون تقدمنا سويا لكشف الحجب عن مميزات الثقافة البانية قائما على قواعد متينة ولعل أهم هذه الأصول:

1. التطور والثبات:

إن الأصل الأول هو أن ندرك أن الكون يقوم على دعامتين اثنتين هما: التطور والثبات، وكل إغفال لأي منهما يكون جهلا بطبيعة الكون. و الحياة لا تستقيم إلا عندما يتحقق التوازن بين الثابت والمتطور، ومن هنا يكون الكشف عن العناصر الثابتة والعناصر المتطورة المتصلة بالكون والحياة والإنسان أمرا له أهميته القصوى، فالشمس تجري لمستقر لها وهي في حركتها لها مدار لا تعدوه، وهذه الكواكب والنجوم السيارة سابحة في أفلاكها ولكنها في سباحتها لا تملك أن تنسلخ من محيطها وإلا اختل نظام الليل والنهار في تعاقبهما، لهما سنة لا تتبدل، حتى هذا الجبل الذي تراه مستقرا أمامك كشيخ وقور مفكر في العواقب كما رآه شاعر الأندلس يوما هو في حركة دائبة وإن لم تدركها العين:

﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب، صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون﴾ (7)

كل شيء في حركة، ولكنها حركة موزونة مضبوطة لا تحيد عن النواميس التي أرادها الله عز وجل. والإنسان، ذلك المجهول الذي كلما ازددنا تعرفا عليه ازددنا يقينا بما نجهله عنه هو أيضا في حركة دائبة، ظاهرا وباطنا، ولكنها حركة خاضعة لفطرة ثابتة لا تتغير، إنه منذ استخلفه الله في الأرض له شهوات تشده إلى الطين وأشواق تتسامى به إلى

7- النمل : 90

الملأ الأعلى والصراع قائم في ذاته أولا بين نزعة الهبوط والارتكاس ونزعة التسامي والارتقاء.

فالتطور والثبات إذن هما ذانك القطبان اللذان تقوم عليهما الحياة.

(إن قولنا المكرر الملح بان الفطرة ثابتة لا يعني قط أننا نلغي من حسابنا قيمة التطور، إننا إن ألغينا قيمة التطور فإننا نلغي حقيقة الإنسان! كل ما في الأمر أننا نرد التطور الدائم إلى النظرة الثابتة الجوهر ونرى –في ذات اللحظة – الجوهر الثابت والصورة المتغيرة حقيقتين متجاورتين، أو حقيقة واحدة شاملة تفسر كل نشاط الإنسان) [8]

2- انتفاء العبث :

هذا الكون العجيب وهذا النظام الدقيق، وهذا الانسجام الهائل بين العناصر الثابتة والعناصر المتغيرة، كل ذلك لم يخلق عبثا وإنما هو يسعى إلى غاية محددة والى هدف لا بد ملاقيه، وهذه حقيقة تشرق أنوارها في جوانب الفطرة السليمة ،فإذا غفل عنها الإنسان نال من الضنك والحيرة بقدر غفلته عنها، ألا ترى إلى ذلك الأعرابي الذي سئل: كيف تدل على وجود الخالق؟ فأجاب: إذا كان السير يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير أفلا يدل هذا الكون العجيب على العليم الخبير ؟

ومن هنا كان من أخطر ما ابتليت به الإنسانية من فلسفات، فلسفة العبث التي تعطل الطاقات وتجعل الحياة قاتمة غير ذات جدوى وتنشر "السيزيفية " البغيضة بما تشمله من يأس ودمار.

3ـ الصراع:

إنه الأصل الثالث الذي جعله الله عز وجل سبيلا إلى الصلاح وهو من سننه الخالدة. إن الصراع قائم بين الحق والباطل، والباطل لا يهدأ ولا يركن، فإذا سكن وسكت الحق انتفى الصراع وظهر الفساد.﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا

---

[8]– التطور والثبات: محمد قطب – ص 145.

صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء . ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾[9] . ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله. ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾[10]

وللصراع أوجه متعددة، وإن كان جوهره واحدا، ونكتفي باللمحة العابرة فنشير إلى وجهتين من أوجه الصراع:

أ- فالصراع في وجهته **الفكرية** يتجه نحو تحرير الإنسان من كل الأنماط التي تكبله، والأشكال التي تعوق قدراته الإنسانية من أن تنمو النمو الطبيعي، وتعمل على طمس خصائصه ومسخ حقيقته، وتشويه فطرته، أي تحريره من كل ما يحول دون تحقيق إنسانيته، ولكن قمة التحرر لا تنال إلا بسبيل واحدة وهي: تحقيق العبودية، وإن تحرر الإنسان من كل الطواغيت إنما يتم عن طريق تحقيق العبودية لله عز وجل. وإن درجة العبودية لله تعالى هي أسمى ما يمكن إن يسعى إليه الإنسان، ومن هنا نعت الله الكريم، رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم، في أكمل حالاته بالعبودية فقال تعالى: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير ﴾ [11]

ب- والصراع في وجهته **الاجتماعية** صراع بين المستضعفين والمستكبرين، وهذا هو المصطلح الإسلامي الشامل الذي يقصر دونه كل مصطلح آخر ويقف غير مستوعب

---

[9]- البقرة : 247-249

[10] - الحج: 40 .

[11] - الإسراء 1

كل ما يتضمنه المصطلح الإسلامي من دلالات، ومن ذلك القول بالصراع الطبقي، ولتوضيح ذلك يمكن أن نتأمل تاريخ التحولات الكبرى، ولاسيما تاريخ الرسل والأنبياء لنقف – على سبيل المثال – عند فترة من تلك الفترات، وهي فترة موسى عليه السلام: فلقد كان الصراع قائما بين معسكري التوحيد والشرك. يقول تعالى ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم طسم ، تلك آيات الكتاب المبين، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ [12].

لقد كان في معسكر الشرك أنماط من العبادات تستعبد الإنسان وتشل قدراته وتحجبه عن نور اليقين وأخطرها: عبادة السلطان ممثلة في فرعون، وعبادة المتاع ممثلة في قارون. ولكن الذي يلفت الانتباه أن الإيمان كان هو الذي يصنع أحداث التاريخ، صناعة يعجز التفسير المادي عن تقديم مبررات لما كان يصاحبها من مواقف إلا عن طريق اللجوء إلى ما يسمى بالحالات الشاذة، وإعطاء كل حالة مصطلحا يدل عليها.

إن حال إيمان زوجة فرعون بدعوة التوحيد، وخروجها على عبادة السلطان والجاه والمال، وقد لقيت في سبيل ذلك عنتا شديدا وعذابا أليما كانت لا تزيد على أن تقول: ﴿رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴾ [13]. وحال مومن آل فرعون الذي لم يصده زخرف الدنيا ومتاعها عن السبيل، وحال سحرة فرعون الذين كانوا من أعمدة الحكم الفرعوني، ثم لما تبين لهم الحق آمنوا إيمانا أغضب فرعون وصاح فيهم ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين . قالوا لا

---

[12] – القصص 1– 6

[13] – التحريم : 11

ضير إنا إلى ربنا منقلبون. إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المومنين ﴾ [14]حالات لا يملك التفسير المادي معها إلا أن يقول بالانتحار الطبقي، وهي مقولة يراد بها ترقيع الخرق الذي تحدثه مثل تلك الحالات، فإذا عثرنا على حال معكوسة كحال قارون ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ﴾[15] قال دعاة التفسير المادي بالتسلق الطبقي .

إنهما مقولتان تبريريتان يقدمهما التفسير المادي بين يدي التاريخ، أما التفسير الإسلامي فيقول شيئا آخر: إن الحركات الربانية تتجه لمصلحة المستضعفين، ولكنها لا تقوم على أكتاف المحرومين دون الموسرين، وكما وجدنا مع موسى عليه السلام سحرة فرعون وامرأة فرعون.. وجدنا مع محمد ﷺ ، أبا بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسواهم.. وكما يقول مطهري (هذه الغفلة، وعدم إدراك الفرق بين الطموح للثورة، وبين اتجاه الثورة، قد أدى إلى الوقوع في كثير من الأخطاء والاشتباهات) [16]وهناك أمر آخر وهو أن المستضعفين ليسوا محصورين في المضطهدين ماديا بل إن الذين يضطهدون ويقاتلون في سبيل المبدأ والعقيدة هم المستضعفون، ولنا في التاريخ الإسلامي شواهد شتى إذا ما الفرق بين صهيب الرومي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي، وبين أبي بكر العربي الذي استضعف وطورد فخرج إلى ربه مهاجرا ؟

---

[14]– الشعراء :49–51

[15]– القصص :76

[16] – حول الثورة الإسلامية : 39

المبحث الثاني:

دعوة إلى حوار يصحح المسيرة الثقافية

ونتيجة لما سبق، تقوم الدعوة إلى حوار ثقافي في جو من الحرية المسئولة، يمكن من تصحيح مسيرتنا الثقافية، (فالمبدأ الذي يمتلك إيديولوجية يؤمن بها ويعتقد صحتها، لابد أن يكون من أنصار حرية الفكر، وعلى العكس من ذلك المبدأ الذي لا يثق بنفسه، فإنه يحارب حرية الفكر) [17] إنها دعوة إلى حوار مفتوح، وجدل بالتي هي أحسن، بعيدا عن الإرهاب الفكري المسلط على أعناق الناس وضمائرهم، فنحن نرى بعض الجهات التي لا تؤمن بحرية الفكر إلا شعارا قد تركب موجة العنف لتحقيق أهدافها، وهذا أمر لابد من تقريره لنكون على بينة من الأمر، يقول مطاع صفدي: " لقد انخرط المثقفون العرب في العنف، انخرطوا جميعهم، ومنذ أول مذبحة عقائدية قامت في دنيا العرب بأيدي العرب أنفسهم، في عراق قاسم وحتى الذين لم يلعبوا دور الزبانية، ولا دور الضحايا من المثقفين، فإنهم اشتركوا بالصمت، بالفرار أمام الحقائق، بتجاهل الفضائح الكبرى التي نظمها المثقفون... عندما يشترك مثقفون بالإرهاب، فإنهم يتخلون عن الفكر بصورة حتمية، وتتحول عندهم الرؤية الموضوعية للأشياء إلى سلسلة من الهواجس المرضية، ولذلك فهم يدافعون عن (عقمهم)الجديد، باصطناع الوصاية على أقدار الجماهير وعلاقاتها المادية، ومصيرها التاريخي)[18]

---

[17]– الفكر الإسلامي هل يتجدد: **13** .

[18]– نقلا عن : الفكر الإسلامي هل يتجدد : ص **15** – وانظر كذلك : محنة الفكر في العراق : هلال ناجي ومحي الذين إسماعيل ، في مواضع مختلفة (كتب ثقافية) .

وقد يركب بعضهم كل مركب، حتى التزوير وقلب الحقائق، من أجل تحقيق نوع من التوازن، لا يملك مقوماته، فلا نجد غير بؤس وعقم شديدين، وهذا أوان الوقوف – كما قلنا [19] – عند بعض النماذج التي تمثل بؤس الثقافة السائدة، قبل الحديث عن الأسس التي ينبغي تركيزها في سبيل إقامة ثقافية بانية.

المبحث الثالث:

من علامات الثقافة المغربية الحديثة

هذا كتاب أصدره بول شاوول عام **1979** وهو عبارة عن لقاءات مع مجموعة من أعلام الثقافة المغربية ، يقول عنها المؤلف (إن مجمل هذه اللقاءات تعبر عن الخطوط الرئيسية والمختلفة والتي تميز واقع الثقافة المغربية الراهن)[20].

وقد جمع المؤلف في كتابه هذا قدرا صالحا من الأسماء، ومن الأفكار أيضا، وإذا نحن استقرينا بعض الشهادات الواردة في الكتاب (يضم شهادات متباينة النزعات والمذاهب، فنيا وفكريا) أمكن التمثيل لما نريده ببؤس الثقافة، وسأقف عند نموذجين اثنين:

النموذج الأول :عبد الكريم غلاب كاتب مسلم

وقد عرفته في أحد مؤتمرات اتحاد الأدباء العرب، ينصرف عن مجالس الخنا والريبة، وهو كاتب متعدد المواهب، معروف بكتاباته الإسلامية، في جريدة العلم خاصة وفي بعض كتبه، ككتاب (صراع المذهب والعقيدة في القرآن) ولكنه في الحوار الذي أجراه معه بول شاوول، ينهض مثلا للفكر الترقيعي المنبهر المهزوم! ويكفي نقل جزء من هذا الحوار للتدليل على ما قلت:

سؤال: لكن ما هو انطباعك عن القصة العربية المعاصرة؟

---

[19]– المشكاة ع 1

[20]– علامات الثقافة المغربية الحديثة :ص 11

جواب: الجواب السلبي على هذا السؤال يؤكد لنا أن القصة العربية لم تتطور التطور الذي يليق بالوضعية التي يعيشها المجتمع العربي وتطور الشكل لا يعفيها من مسؤولية التخلف من ناحية المضمون.

وبنظرة متفحصة إلى هذا المجتمع العربي نجد أن الطبقية تتعمق أكثر وأكثر فيه، بالإضافة إلى أن الانفجار السكاني الذي نجده في العالم العربي قد زاد من مشاكل المجتمع العربي وزاد من عدد الطبقات المظلومة اجتماعيا واقتصاديا، وكل البلاد العربية – ولا أستثني المغرب – تقع في نفس المشكلة.

س: لكن ألا تظن أن هناك عوامل أخرى.. ربما غيبية ودينية ؟

ج: كل هذا يرجع إلى الارتجال في حل المشكلة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية. الفكر الديني ليس فكرا غيبيا. لابد للإنسان أن يرتبط بدين سماوي. والديانات لم يعد لها المعنى الضيق. كل مذهب دين، وكل إيديولوجيا يمكن اعتبارها دينا الدين الحقيقي ليس غيبا، أي دين – ولو كان دنيويا – ليس غيبا. الدين يشجع الإنسان على التفكير والعمل ويأخذ قسطه من الحياة، لكن انتشار الغيبيات ناتج عن شيئين اثنين: أولا الضعف الثقافي، وثانيا انحدار المستوى الاقتصادي. الإنسان الذي لا يجد خبزا يأكله يلجأ إلى الخرافة وإلى السحر.

س: هل تعتبر من خلال ما قلت كرد على الفكر الغيبي إن الفكر المادي في مستوى ما قد يحل المشاكل والمسائل الاجتماعية والاقتصادية العربية ؟

ج: هذا يحتاج إلى تحليل معنى الفكر المادي، إذا كان الفكر هو البحث عن الحلول العلمية للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية المعقدة، فأنا مع التفكير المادي. لكن إذا كان التفكير المادي هو إخراج الإنسان من كل مقوماته الدينية والأخلاقية والإنسانية، فبطبيعة الحال هو فكر انحلالي، وحينما يجرد الفكر المادي الإنسان من هذه المقومات يتركه ضائعا بلا هوية بدون أصل، بدون مقومات.

س : هل تظن أن العلمانية، ومن ضمن هذا الفكر، قد تساعد على تجاوز الحالة التي نتخبط فيها ؟

ج : هناك خطأ على ما أعتقد في تفسير كلمة " العلمانية " أنا أعتبر أن الدين مبدئيا لا يفرض نفسه على الدولة. بمعنى أنه ليس هناك دولة دينية. الإسلام مثلا لا يقول بالدولة الدينية، الدين له معنيان في الإسلام: المعنى الأول هو ما يخص الإنسان والله، والإسلام في هذه النقطة يخاطب ضمير المسلم مباشرة ولا دخل للدولة بها، المعنى الثاني هو ما يتصل بالمجتمع. في هذه النقطة، الإسلام يعرض حلولا لمشاكل المجتمع الاقتصادية والاجتماعية. وفي الوقت الذي يعرض فيه حلولا يترك الحرية كذلك للمسلمين في أن يختاروا الحلول التي تتفق مع المشكلة نفسها. فالإسلام يمكن أن نقول إنه علماني. الدولة، ليس من الضروري أن تشرف على الإسلام أو على تطبيق الإسلام، ولكن من الضروري أن تتحمل مسؤوليتها في حل المشاكل المجتمعية. فإذا وجدت في الإسلام الحلول التي تحل هذه المشاكل أخذت بها، وإذا كانت المشاكل من القضايا المستحدثة التي وجدت في التطور الإنساني والاقتصادي والاجتماعي، فلها أن تختار الحلول العصرية على ألا تتناقض مع أصول الإسلام التي هي العدل واحترام كرامة الإنسان [21].

إننا نلاحظ في هذا الكلام خلطا واضطرابا واهتزازا.

فهناك أولا اضطراب في مفهوم (الغيب) ومفهوم (الدين)، فهو يقول: (الدين الحقيقي ليس غيبا) ونحن حين نقرأ القرآن الكريم نجد الإيمان بالغيب هو القاعدة التي إذا انهارت انهار بناء الإنسان. ففي أول سورة رتبت في المصحف وهي سورة الفاتحة نقرأ: ﴿ملك يوم الدين ﴾. فما يوم الدين؟ أليس الإيمان به غيبا؟ وفي السورة الثانية – سورة البقرة – نقرأ ﴿الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يومنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾[22]. فالإيمان بالغيب قبل الصلاة والزكاة.. وهكذا إنه – كما سبق الذكر – التصور المشوش الذي يخلط بين مفهوم الغيب كمعرفة يقينية – كما هو التصور الإسلامي– وبين الطوباوية والمثالية والضبابية المفضية سبلها إلى التيه.

---

[21] – علامات في الثقافة المغربية الحديثة : بول شارون المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1979 ص 51–52

[22]– البقرة 2/1

وهناك ثانيا تجريد الإسلام من فعاليته التاريخية والاجتماعية حين نقول إن الدولة ليس من الضروري أن تشرف على الإسلام أو على تطبيق الإسلام، وهذا ما أدى بالكاتب إلى أن يعلن أن (الإسلام يمكن أن نقول إنه علماني)، والعلمانية كما هو معروف تقوم على فصل الدين عن الدولة، وهذا عين ما قاله الكاتب رغم أنه حاول تعريف العلمانية تعريفا من الصعب أن يسلم به، وهذا الفصل أمر لم يعرفه الإسلام، ليس من طبيعته. فالزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام، وهي عبادة من العبادات أفيحق أن نقول: ليس للدولة أن تتدخل إذا منع الأغنياء حق الفقراء ؟ إذن فما بال حروب الردة ؟ وما بال الصديق يقول: (والله لو منعوني عقالا كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة) بل إن الصلاة نفسها وهي علاقة بين العبد وربه، ليست مما يخرج من مسؤوليات الدولة، ألا يستتاب تارك الصلاة ثلاثا، فإن أبى قتل؟ ويبلغ اهتمام الرسول ﷺ ، بأمر الجماعة في المسجد أن يهم بتحريق بيوت تاركي الجماعة من غير عذر، أن يقول: " والذي نفسي بيده، لقد هممت أن آمر بحطب فيحتطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ثم آمر رجلا فيؤم الناس، ثم أخالف إلى رجال فأحرق بيوتهم " متفق عليه .

فالدين إذن – ولا دين غير الإسلام لقوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [23] – في معنييه اللذين ذكرهما الأستاذ عبد الكريم غلاب، من شأن الدولة الإسلامية، ولا يحق لها أن تتنازل عن مسؤولياتها هذه.

النموذج الثاني : وتتحدد توجهاته عبر قناتين :

القناة الأولى وهي التي يسعى من خلالها الكاتب إلى البحث عن مشروعية للهدم والتخريب استنادا إلى نصوص مقدسة أو قاعدة تراثية اكتسبت مناعتها وفعالياتها عبر التاريخ، والقناة الثانية تتراوح في مهمتها بين الصدام والمواربة، وسأترك النصوص تعبر عن نفسها بنفسها:

مثال القناة الأولى :

---

[23] – آل عمران 19

1- في حوار مع **محمد زفزاف**، نجده يقول (هناك مجموعة من التقاليد المتحجرة، وهناك أيضا مجموعة من المفاهيم الجامدة التي لاتزال تسيطر على عقلية الإنسان العربي، وإني أتساءل كيف لانستطيع أن نعبر باللغة العربية عن أشياء لم يستطع الله نفسه أن يخجل من خلقها (كذا!) أننا نجد في القرآن الكريم آيات تتحدث عن بعض الأشياء الجنسية) [24].

إننا نقر بأنه ليس في القرآن آيات تتحدث عن بعض الأشياء الجنسية فحسب، بل إن في الإسلام نظرية متكاملة عن الجنس (انظر مثلا: الإسلام والجنس، لفتحي يكن) ولكنه شتان ما بين النظرية الإسلامية في الجنس وبين ما يريده زفزاف من (إيجاد سند شرعي) لكتابة أدبية على شكل (المرأة والوردة).

2- يقول **الخطيبي** في كتابه (الاسم العربي الجريح): يقال استنادا إلى الشيخ النفزاوي، إن قراءة القرآن مهيئة للجماع.. إن القرآن إذن هو الكلام الشعائري الفاتح للشهية، إنه وسيلة الجماع) [25]وهو يستمر بمنهجه (العلمي !) ليصل إلى هذه النتيجة: فالله يحدد الآداب الشبقية، والنبي يشرعها، والكاتب يدونها) [26]. وهو رجل مولع بآراء لاوتسو وبوذا وأضرا بهما إلى حد الهوس.

إن الخطيبي رجل مشوه الفكر، وليس قولي هذا من باب التشهير ولكنه وصف لواقعه الكتابي كما يتجلى في مؤلفاته، فهو من الذين مارسوا الكتابة بالفرنسية (وهل ينبغي التذكير بما بين الفكر واللغة من علاقة جدلية) ثم حدثته نفسه بأن يلج مجالا من أخطر مجالات الحضارة الإسلامية لايسلم قياده بسهولة لمن لا يتقن العربية، فشدا من العربية ما شدا، وظلت مصادره الإسلامية ما ترجم إلى الفرنسية، ثم هو لم يتورع، ولا حجزه منهجه العلمي عن الخوض في القرآن الكريم بما لا يعرف. واسمع ماذا يقول في كتابه السالف الذكر: (جاء في آية قرآنية معروفة ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا

---

[24] – بول شاوول : ص **65**

[25] – الخطيبي في كتابه: الاسم العربي الجريح ص **101**

[26] – نفسه ص **112**

حرثكم أنى شئتم﴾، تستطيع أن تستخلص من هذه الآية أن نكاح المرأة من الخلف مباح. وهذا تفسير مرفوض من قبل بعض الفقهاء [27]) وكأنه بهذا التبعيض يرمي إلى أن يضفي المشروعية والعلمية على هلوسته ! وهو بعد لا هم له إلا أن يبحث للشذوذ عن مبرر فيقول: (لابد لهذه الشهوة مهما كانت مبتغاة، أن تفصح عن أساسها النظري) [28].

وأما ما زعمه من فهم للآية، فيدل على جهل بالعربية، وسلخ للنص من مكانه، وغفلة عن السياق وعن أقوال العلماء جميعا، فالآية (وهي في الحقيقة بعض آية) وردت في سياق خاص يدل عليه قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المومنين ﴾ [29].

عن أبي جويرة قال: سأل رجل عليا عن إتيان المرأة في دبرها فقال: سفلت سفل الله بك، ألم تسمع قول الله عز وجل:﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها أحد من العالمين ﴾

وحين سئل مالك رضي الله عنه عن ذلك قال: " ما أنتم إلا قوم عرب، هل يكون الحرث إلا في موضع الزرع؟ فانظر إلى قوله: ما أنتم إلا قوم عرب، ما يدل عليه، من أن العربي، أو الخبير بأساليب العربية، لا يحتاج إلى أن يسأل عن مثل ذلك، ومذهب مالك هو مذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة .

يقول سيد قطب:

﴿ فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ في منبت الإخصاب دون سواه، فليس الهدف هو مطلق الشهوة، إنما الغرض هو امتداد الحياة وابتغاء ما كتب الله. فالله

---

[27] – ص 61

[28] – ص 50

[29] – البقرة 220-221

يكتب الحلال ويفرضه، والمسلم يبتغي هذا الحلال الذي كتب له ربه، ولا ينشىء هو نفسه ما يبتغيه.

... أما مناسبة السياق فيتسق معها التعبير ، لأنها مناسبة إخصاب ونماء، ومادام حرثا فاتوه بالطريقة التي تشاءون ولكن في موضع الإخصاب الذي يحقق غاية الحرث: ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ [30] وفي الوقت ذاته تذكروا الغاية والهدف، واتجهوا إلى الله فيه بالعبادة والتقوى ، فيكون عمل صالحا تقدمونه لأنفسكم) [31]

2- مثال القناة الثانية: يقول **محمد بنيس** (أول ما يجب أن يتجه إليه النقد هو المتعاليات، بمختلف تجلياتها، ليس الغائب هو الذي يخلق الحاضر والمستقبل، بل الإنسان هو خالق حاضره ومستقبله) [32]

فمن الغائب الذي يتحدث عنه بنيس؟ وما هذه المتعاليات؟

يقول بنيس في مقدمة كتاب (الاسم العربي الجريح) : (لقد اهترأ العالم العربي بتراكم المفاهيم والقيم المتعالية التي تفصل بين الإنسان وجسمه، الإنسان ومستقبله، تحرم متعته وشهوته وتغيره. ومن غير مبالغة نقول إن التحرر العربي يفرض تحرر الجسم هو الآخر) [33]وهو لا يتركنا نهيم في بيداء التأويلات والافتراضات، وإنما يتقدم ليعطينا الجواب بكل تحديد (لهذا تقترن هذه القراءة بالإسلام، كمفهوم مسبق ومتعال للذات والعالم...،، وقد آن لهذه السماء المتعالية أن تكف عن تغييب جسمنا، تشطيره إلى نور وظلام، يمين ويسار، خير وشر، ملائكة وشياطين. آن لهذا الجسم أن يحتفل بشهوته ومتعته)[34].

---

[30] – قوله تعالى : (أنى شئتم) معناه كيف شئتم ومتى شئتم ، ولا ينصرف أا إلى ما انصرف إليه وهم الخطيبي . انظر في تفسير الآيات : الكشاف والطبري وابن كثير وأحكام لابن العربي والصفوة وضلال سيد قطب

[31] – في ظلال القرآن **242/1** .

[32] – الثقافة الجديدة – ع **19** س **1981** – ص **41**

[33] – نفسه ص**7**.

[34] –نفسه ص **8**.

إنها فعلا عبادة الشهوة، وعبادة المتاع !!

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: (الحكم الذي ساد بلاد الإسلام من بضعة قرون كان طرازا منكرا من الاستبداد والفوضى، انكمشت فيه الحريات الطبيعية وخارت القوى المادية و الأدبية، وسيطر على موازين الحياة العامة نفر من الجبابرة، أمكنتهم الأيام العجاف أن يقلبوا الأمور رأسا على عقب... والحكم الاستبدادي تهديم للدين وتخريب للدنيا، فهو بلاء يصيب الإيمان والعمران جميعا... وقد أصيب الإسلام في مقاتله من استبداد الحاكمين باسمه) وهذا الجو الرهيب الذي ساد أمتنا قرونا كان من شأنه أن يعطل الطاقات، ويشوه الحقائق، ويسد الطريق أمام الجهود الهادفة إلى تكريم الإنسان، بل إنه فسح المجال للنباتات الطفيلية الشاذة التي لم تلبث أن تغلغلت في حياتنا ثم سيطرت وتحكمت في رقاب العباد، ولكن الليل إلى زوال، والظلمة إلى انتهاء...

كثيرا ما يقال: إن الثقافة نتاج البنيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لوسط ما، ولكن ذلك تدليس لأنه يبوح بنصف الحقيقة، وأما النصف الآخر فهو أن **الثقافة فعل تغييري يسهم في إنتاج وتشكيل البنيات الأنفة الذكر**. بل يمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول: ليست نمطية الإنتاج وعلاقاته هي التي تحدد أفكار الناس، بل العكس هو الصحيح وإن قول كارل ماركس: (ليس شعور الناس هو الذي يعين وجودهم، ولكن وجودهم هو الذي يعين مشاعرهم) قول غير سليم. (إن التفسير المادي للتاريخ يتمحل الأسباب لثورة الرقيق في أروبا في نهاية العصور الوسطى، فيقول إنها كامنة في نشوء المجتمع الصناعي وحاجة المصانع إلى العمال وضرورة تحرير رقيق الأرض للعمل في المصانع!،،، فما تفسير ثورة العبيد الشهيرة في العصر الروماني بقيادة " سبارتاكوس " قبل نشوء المجتمع الصناعي، وقبل حدوث أي تطور في أساليب الإنتاج يدعو لتحرير العبيد؟،،، وليس معنى ذلك أن نلغي الأسباب المباشرة التي أدت لتحرير رقيق الأرض عند نشأة المجتمع الصناعي! كلا، وإنما معناه فقط أن نردها إلى الفطرة التي تترقب الفرصة المناسبة لتحقيق وجودها. [35]

---

[35] – التطور والثبات: محمد قطب. ص 123.

وعسى أن تكون **خصائص الثقافة السائدة**، بهذه الكلمات قد اتضحت بعض الوضوح، حتى نشرع في الوقوف عند **معالم الثقافة البانية وخصائصها**، هذه الخصائص التي سنقف عندها يمكن حصرها فيما يلي:

1- ثقافة ربانية.

2- ثقافة إنسانية.

3- ثقافة محررة متحررة.

4- ثقافة واضحة.

5- ثقافة متوازنة.

6- ثقافة مسؤولة واعية .

الفصل الثالث:

خصائص الثقافة البانية

تمهيد:

أخشى أن ننصرف إلى الحديث عن الخصائص قبل استكمال الحديث عن مظاهر الثقافة السائدة فيظن أن ذلك غفلة عن بعض الأمور أو إغفال لها، وأن البناء لذلك لن يقوم على أساس متين، ولذلك أنبه إلى أن بعض مظاهر تلك الثقافة قد أرجيء الحديث عنه إلى باب الخصائص فتكون حركتا الهدم والبناء متوازيتين، غير أن هناك أمرا لا يقبل الإرجاء، ولابد من الإشارة إليه، وكنت سكت عنه ظنا مني أنه، لوضوحه، لا يستحق أن يسود له قرطاس ثم تبين غير ذلك فأقول: إن من طبيعة الثقافة البانية أنها ثقافة **رائدة**، تسلك الإرشاد والترشيد، فإن عز ذلك وسيلة لجأت إلى ما هو أنجع، ولذلك فهي ثقافة بهذا المعنى مصادمة غير مستكينة، واستئناسا بقول الإمام علي كرم الله وجهه: (ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه) وقفنا عند بعض المظاهر الثقافية التي لم نرتب في إخلاص أصحابها فيما ندبوا أنفسهم له ظانين أنه الحق، ولم نرتب أنهم أخطأوا طريق البناء.

أما الثقافة التي لا تملك غير ترقيع ما انفتق، أو تلميع ما يوشك أن ينهار، فلم نلتفت إليها اقتناعا منا بأنها ثقافة تعيش ولا تحيى ولو مدت إليها شرايين الحياة، وصبغت بأصباغ النداوة حتى تظهر عليها نفخة الروح..إنها باختصار ثقافة ميتة بالرغم مما قد تحاط

به من أضواء وذلك شأن كل ثقافة ترعى في ظل من يحمون الأنظمة المتسلطة .. إنها المنسأة الهشة التي يتوكأ عليها الأحياء الموتى تترقب دابة الأرض تأكل منها فيتهاوى البناء.

1ـ ثقافة ربانية:

(الربانية أولى خصائص التصور الإسلامي، ومصدر هذه الخصائص كذلك.. فهو تصور اعتقادي موحى به من الله – سبحانه – ومحصور في هذا المصدر لايستمد من غيره [36])
(وميزة هذا التصور المنبثقة من خاصية الربانية – أن يلبي الكينونة الإنسانية بجملتها ويدخل كذلك في دائرة إدراكها) [37].

ولقد أودع الله عز وجل في نفس كل إنسان أشعة من الربانية، إذ خلقه بيديه وسواه ونفخ فيه من روحه، ولكن الضعف البشري قد يميل بالإنسان عن الصراط، فيجيء الوحي ليحدد المعالم ويبين الحدود.

ولقد أجاب الوحي عن القضايا المصيرية الكبرى التي كانت تؤرق الإنسان (من مبدئه إلى منتهاه) وتلفه بنسيج من الحيرة والقلق والاضطراب، ثم دعاه إلى الانطلاق وأطلق عقاله، وحثه على التحري والنظر والبحث، ولقد كان إعلان ختم النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم، كما قال محمد إقبال رحمه الله، إيذانا بدخول الإنسانية مرحلة الرشد: ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ [38] .

وليس الإنسان منفيا من مجال هذه الخاصية، بل هي تتجلى في أعظم مقاماتها في الإنسان، نظرا لمقام التكريم الذي خص به، والتحقق بالربانية يعصم من الزلل ويجعل جهد الإنسان لا يضيع سدى، بل يصب حيث ارتضى الله، وهذا التحقق ليس إلغاء للذات ونفيا لها وإنما هو التحرر من كل سلطان، غير سلطان الحق:

---

[36]– خصائص التصور الإسلامي ومقوماته: سيد قطب – ص 43 دار الشروق 1983

[37]– المرجع السابق

[38] – سورة العنكبوت / 20

﴿ما كان لبشر أن يوتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾[39].

2ـ ثقافة إنسانيـة :

وهذه من أخص خصائص الثقافة البانية، وهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالربانية، لأن كل ثقافة إنسانية لا يمكن أن تكون كذلك إلا إذا كانت ربانية. ومفهوم الإنسانية يشمل جوانب متعددة نذكر اثنين منها:

أ- أن الثقافة ينبغي أن تسعى إلى خدمة الإنسان وتكريمه بالصورة المثلى، عن طريق إنماء نوازع الخير فيه، فهي لا تصور لحظات الإحباط والارتكاس تصويرا يجعلها حتمية كصخرة سيزيف، بل هي تعمل على كشف قدرات الإنسان التي تمكنه من تجاوز تلك اللحظات، كما لا تسعى إلى إلغاء وجود الفرد الحق، بجعله عبدا لأهوائه ونوازعه وشهواته باسم التحرر، ولا إلى إلغاء وجوده عن طريق الذوبان والانسحاق داخل المجموع باسم خدمة الجماعة ونكران الذات..إنها تنظر إلى الإنسان من حيث هو إنسان، له كينونة تتعدد صورها، وتتكامل ولا تتصارع، فلا ينبغي أن يطغى عنصر على حساب عنصر آخر ..

ب- وهي ليست ثقافة إقليمية منغلقة، بل هي ثقافة منفتحة، ولكن انفتاح وعي وهدى.. إنها بتعبير آخر: ثقافة عالمية، ولكن العالمية هنا لا تعني أن الأديب – مثلا – ينبغي أن يلهث وراء أخبار العالم، ملتقطا الحوادث، غافلا عن واقعه وواقع أمته، بل تعني أنه في تناول قضايا أمته ليس منغلقا على الذات، فهو لا يعالجها بمعزل عن الوعي الإنساني العام، وهو في الوقت ذاته قد يتناول قضايا أمم أخرى، إلا أن هذا التناول ينبغي أن يصاغ صياغة منسجمة مع واقع أمته، فإذا هو أخطأ هذا الطريق، أخطأ الطريق إلى الإنسانية ولن يشفع له من بعد شيء.. وكثيرا ما أخطأ بعض أدبائنا الطريق وهم يلتمسون "العالمية" فهم يلهثون وراء ما يجري في العالم غافلين أحيانا (أو متغافلين، لأن الانتباه قد يكلف غاليا)

---

[39]- سورة آل عمران : **78**

عما يعانيه أبناء أمتهم.. ولنضرب مثلا واحدا، بفتح أحد دواوين الشعراء الرواد وليكن عبد الوهاب البياتي، ولنقرأ عناوين القصائد، فماذا نجد؟

هذه بعض العناوين:

(ثلاثة أغنيات إلى أطفال وارسو – الى ماوتسي تونغ الشاعر – الى هاتسن كرو تسبورغ – الى أمهات جنود ألمانيا الديموقراطية – ميدان ماركس – أنجلز – الى ت . س. اليوت – الى مكسيم غوركي – الى مایاكوفسكي..)

أين نعيش؟ قطعا ليس في العالم العربي، أين الواقع العربي؟ وأين الواقع الإسلامي إذا أردنا أن نوسع الدائرة؟ إنه الغياب التام أو يكاد..

3ـ ثقافة محررة متحررة:

لايماري أحد في أن القومة الحضارية تقتضي وحدة الأمة الشاملة، وهذه الوحدة ينبغي أن تنطلق من الشعور، ولا شك أن الفعل الثقافي من سبل تحقيق ذلك، إن لم يكن السبيل الأول. ليست القضية قضية بحث عن الذات، فذاتنا الحضارية، رغم ما ران عليها واضحة الملامح، ولكن القضية تكمن في تحقيق الذات الغائبة وتجذرها في الواقع للارتفاع بالانسان من الارتكاس، والارتقاء به إلى معارج التكريم الالهي، ينبغي أن نحرر الإنسان من كثير من العقابيل.

ولكن كل ثقافة محررة ينبغي أن تكون متحررة أولا. وعملية التحرر ينبغي أن تلتفت الى عنصرين: عنصر يتعلق بالماضي وآخر يتعلق بالحاضر. فأما الماضي فينبغي فهمه فهما جيدا حتى يكون مصباحا يهتدى به لاسيفا مصلتا على الرقاب وللتحرر من سلطان الماضي ينبغي التسلح بالقاعدة التالية التي أقرها الامام مالك رحمه الله: (كل يؤخذ من أمره ويترك إلا صاحب هذا القبر – يعني النبي ﷺ) . وهذا يعني أن التراث كله قابل لأن يطرح على بساط الدرس فيؤخذ منه ويترك.

وأما الحاضر فمازلنا منه في موقفين: فإما موقف الانبهار بالحضارة المعاصرة ومنجزاتها المادية والفكرية وهو انبهار يتجدد ويتخذ لنفسه صورا شتى، فنحن نتلقف مواليد هذه الحضارة، ولو كانت مخلوقات مشوهة غير تامة الخلق، وغير مستوية وهذا

يشي بغياب الذات غيابا مطلقا، وأما موقف الرفض التام من موقع الخوف من الهجنة، وهذا يدل على غياب الوعي والاقتناع التامين بحقيقة الذات، وكلا الأمرين داء خطير ينبغي علاجه .

فلنكف إذن عن اتخاذ الإنسان حقل تجارب، نخدره ونحقنه بما شئنا من الفلسفات والمذاهب، وعن جعله غير واثق بنفسه ولا بمن حوله كما نرى في المقطع الثالث والمقطع السادس من قصيدة البياتي (العرب اللاجئون) حيث تتكرر قولة سارتر:

الآخرون هم الجحيم

الآخرون هم الجحيم

ولنكف عن التفكير نيابة عن هذا الإنسان.

ليست هذه دعوة إلى الانغلاق، بان نضع أنفسنا في قوالب جامدة ولا هي دعوة إلى أن نغيب ذاتنا بالانسلاخ الحضاري، ولكنها دعوة إلى وحدة واعية بما يحيط بها من مظاهر التعدد أو هي دعوة إلى التعدد داخل الوحدة.

4.ثقافة واضحة :

إن من شروط الثقافة البانية أن تكون واضحة الأهداف، ولكن من شروطها كذلك أن تكون وسائلها منسجمة مع طبيعة الأهداف، ومن هنا تتداعى القاعدة الميكافيلية: (الغاية تبرر الوسيلة) فالغاية في مفهوم الثقافة البانية، لا تبرر الوسيلة، وإذا كان الهدف الأساس هو تكريم الإنسان وتحريره من كل مظاهر الخوف والتواكل والإحجام، فإن من الخيانة أن نسير بهذا الإنسان في سراديب التيه. وإذا كانت طبيعة العمل الأدبي– مثلا – باعتباره رافدا جوهريا من الروافد الثقافية تتنافى مع التسطيح وتتطلب قدرا من الإشارات المحملة بالرموز، فإن ذلك لا ينبغي أن يكون مبررا للسقوط في الإبهام وإلا تعطلت رسالة الأديب.

عندما يحتج الجمهور ويعلن رفضه لأدب ما بتهمة الغموض والإبهام قد نتهمه بالضحالة الفكرية ونقول: إن على الجماهير أن تصعد إلى الأديب لا العكس، مرددين مع

أبي تمام قوله لمن اعترض على مذهبه: لم لا تفهم ما يقال ؟ أما عندما يصيح الأدباء والنقاد أنفسهم احتجاجا على انعدام التواصل الأدبي فينبغي أن نصيح جميعا: كفى !

وحتى لا يبقى هذا الحديث عاما أقف عند هذا المثال:

يقول نجيب محفوظ عملاق الرواية العربية لعز الدين إسماعيل تعليقا على العدد الخاص بمناهج النقد الأدبي المعاصر من مجلة فصول **1981**: " لم أكن أعلم أن النقد قد صار على هذا القدر من الصعوبة " ولا أعرف إذا كان نجيب محفوظ قد كلف نفسه شيئا من التفكير بحثا عن الأسباب التي جعلت النقد يصير (على هذا القدر من الصعوبة)، ولكني على يقين أن قدرا من التفكير كفيل بكشف بعض تلك الأسباب إن لم يكن كل تلك الأسباب التي من بينها بلا ريب، العلاقة الوطيدة الموجودة بين الأدب والنقد، إذ لا يمكن أن يصبح الأدب (على قدر من الصعوبة) ثم يظل النقد بعيدا عن اصطناع أدوات مستحدثة تمكن من الاقتراب من ذلك الأدب الصعب، ومنذ ما يزيد على عشر سنوات من صدور العدد الخاص من (فصول) صرح عملاق الرواية العربية بما يلي: (تسألني عن رأي ابنتي في قصصي.. القديمة تعجبهما جدا، أما أقاصيصي القصيرة الجديدة فهما أحيانا تتهمانني بالجنون)[40].

لم تتمكن بنتا نجيب محفوظ من تفسير التحول الأدبي الذي طرأ على أبيهما، ولكنهما عبرتا بالتأكيد عن رأي صنف من القراء، وهذا ناقد يسعى إلى محاولة للتفسير دون أن يقطع الجسور في تحليله بينه وبين ابنتي نجيب محفوظ – يقول غالي شكري: (لكني أقرأ أعمالك الأخيرة في القصة القصيرة – وتوقفك عن كتابة الرواية لايخلو من المعنى – فأشهد أن الأمور اختلطت عليك اختلاطا شديدا، لم تعد هناك رؤيا موغلة في الأعماق تتطلب منك تكليفا يصل إلى درجة الشعر، وتتطلب من قارئك تركيزا يصل إلى درجة الصلاة، كما كان الحال في رواياتك السابقة للهزيمة، وإنما أصبحت هناك مجموعة من المعادلات الرياضية البحتة، هي صعبة صعبة وهي سهلة سهلة، لأنها لاتتطلب سوى العثور على المفتاح السري.... فإذا لم يجده مسكين مثلي، فاتت عليه " الفزورة " وضاع عنه

[40] – مجلة الهلال : عدد خاص بنجيب محفوظ **1970**

اللغز، أما السعيد السعيد الذي يجيد حل الكلمات المتقاطعة ولعب الشطرنج ويتابع فوازير رمضان ويتثقف بألغاز الجان والشيطان فإنه سرعان ما يكسب الرهان، ويربح العروسة والحصان)[41].

5ـ ثقافة متوازنـــة:

نحن بحاجة إلى (إعادة تشكيل العقل المسلم) وإلى إعادة تشكيل وجدان المسلم أيضا، فيصحح منهج التلقي، ومنهج الفعل ، وهذه عملية بناء تقتضي الفهم العميق لطبيعة الإنسان حتى لا يختل البناء .. إننا بحاجة إلى " أنسنة " الإنسان، لا إلى تأليهه على طريقة نيتشه ولا إلى سحقه ومسخه بأسلوب كافكا. وأنسنة الإنسان تقتضي التوازن داخل المتلقي، لكن تتطلب أولا توافر التوازن داخل الفعل الثقافي نفسه ..

إن البناء الحضاري رهين بفقه الإنسان، بشروطه الثابتة وعناصره المتغيرة، ورهين أيضا بفقه الزمان والمكان اللذين يسهمان في تشكيل العناصر المتغيرة. الإنسان والزمان والمكان تلك هي الشروط الأساسية للبناء الحضاري، وكل تحول حضاري إنما هو نتيجة للتوازن الفعال بين هذه الشروط .

في الفن مثلا: ينبغي أن يتحقق الانسجام بين العناصر المركبة للإبداع (لوحة – نص الخ ..) من جهة، وبين الهدف المحدد من جهة أخرى. إن العمل الفني لا تتحدد قيمته من ذاته فحسب بل تتحدد أيضا من خلال فعاليته الإيجابية.. علينا أن نستحضر دائما أن المقالة غير القصة، وأن الخطبة غير القصيدة، وأن الجنس الأدبي نفسه تتغير مكوناته وشروطه طبقا لتغير الزمان والمكان، ولكل نص أدبي عناصره المميزة، حتى عندما ندعو إلى ما أسماه بعضهم (الكتابة) كإلغاء للأنواع والأجناس الأدبية، نكون قد اخترنا جنسا أدبيا جديدا ينبغي لنجاحه أن تتوافر فيه شروط وعناصر لا غنى عنها لتحقق " الكتابة " رسالتها وأن التوازن في العمل الأدبي بين القيم الجمالية والقيم الفكرية شرط لازم لتحقيق الغرض.. أي أن " الفائدة " و " المتعة " يسيران جنبا إلى جنب، ولنا في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على ما ذكرت وحسبنا هذه الآيات البينات من سورة النحل شاهدا على

---

[41] – ثقافتنا بين نعم و لا غالي شكري – ط 1 . 1972 س 83

ضرورة التوازن بين الفائدة والمتعة: ﴿ والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرؤوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعملون ﴾ [42] .

6ـ ثقافة مسؤولة واعية :

إن الشعور بالمسؤولية يزيدك إحساسا بالحرية، ويعمق في ذاتك أسرارها، ليجعلها تسري في أعماق الوجدان، ولكنه في الوقت ذاته يجعلك رقيبا على حريتك. إنها باختصار ثقافة ملتزمة بطبيعتها، ولكن الالتزام فيها نابع من شعور داخلي عميق مرتبط بالحقيقة الكبرى، وهي أن الله عز وجل رقيب حسيب، وليست هناك سلطة خارجية تسلط السيف على الرقاب، أو تحصي أنفاس الناس، سواء أكانت سلطة أدبية أم سلطة سياسية.. إنها ثقافة تتجسد فيها الثورة على (الجدانوفية) و (المكارثية) لأنهما (وهما وجهان لعملة واحدة) تقتلان الإبداع وتدجنان الثقافة وترعيان الطفيليات والنباتات السامة..

ورب معترض يقول: ففيم إذن سجن عمر رضي الله عنه الحطيئة ؟

فأقول: لم يكن تصرف عمر تكميما للأفواه، ولكنه كان تصرف المسؤول الذي يشعر بأن عليه حفظ أعراض الرعية. ويزداد الأمر جلاء إذا نحن قارنا بين موقفه هذا وموقفه من واليه النعمان بن عدي وقد بلغه قوله:

إذا كنت ندماني فبالأكبر اسقني *** ولا تسقني بالأصغر المتلثـــــم

لعل أمير المؤمنين يســـــــوءه *** تنادمنا بالجوسق المتـــهـــــدم

إن المسؤولية تتحدد في التصور الإسلامي وفقا للموقع، فتتسع أو تضيق. فالإنسان حتما مسؤول عن نفسه، ولكنه من موقعه المتميز قد يكون مسؤولا عن غيره بتحديد العلاقة القائمة بينه وبين غيره. ولا شك أن مسؤولية المثقف مرتبطة بالوعي، فكلما ازداد

[42] – سورة النحل : 5– 8 .

وعيك ازدادت مسؤوليتك، كما أنها مرتبطة بمدى دخول دائرة الفعل الثقافي، عن وعي وبصيرة كيفما كان حجم ذلك الفعل ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ﴾[43] .

الفهرس

الثقافة: المعرفة والسلوك والبناء..... 3
تقديم بقلم فضيلة الأستاذ الشاهد البوشيخي..... 5
مقدمة..... 9
الفصل الأول: نحو ثقافة بانية..... 11
المبحث الأول: بل هي فتنة..... 12
المبحث الثاني: مظاهر ثقافة مأزومة..... 15
المبحث الثالث: من نتائج الثقافة المأزومة..... 17
المبحث الرابع: من أغراس الثقافة البائسة..... 19

[43] - الإسراء 36

الفصل الثاني:معالم الطريق لثقافة بانية..... 27
المبحث الأول: أصول ثلاثة للثقافة البانية..... 28
1- التطور والثبات..... 28
2-انتفاء العبث..... 29
3-الصراع..... 29
المبحث الثاني: دعوة إلى حوار يصحح المسيرة الثقافية..... 33
المبحث الثالث: من علامات الثقافة المغربية الحديثة..... 34
النموذج الأول: عبد الكريم غلاب كاتب مسلم..... 34
النموذج الثاني: وتتحدد توجهاته عبر قناتين..... 37
الفصل الثالث: خصائص الثقافة البانية..... 43
تمهيد..... 44
1-ثقافة ربانية..... 44
2-ثقافة إنسانية..... 45
3-ثقافة محررة متحررة..... 46
4-ثقافة واضحة..... 48
5-ثقافة متوازنة..... 49
6-ثقافة مسؤولة واعية..... 50
الفهرس..... 52